

# موقف الفكر الإسلامي من العلمانية ج 1

الكاتب: سفر الحوالى



## خرافة العلمانية

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَتُوْبُ إِلَيْهِ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ أَنفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضْلِلٌ لَّهُ، وَمَنْ يَضْلِلُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مَرْشِدًا، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَبَعْدَ:

قَبْلَ أَنْ نَبْدُأَ فِي الْمَوْضِعِ أَرِيدُ أَنْ أَنْبِهَ عَلَى بَعْضِ الْأَشْيَاءِ وَقَدْ تَكُونُ شَكْلِيَّةً، وَلَكِنْ نَحْنُ الْمُسْلِمُونَ يَجِبُ أَلَا نُفَرِّقَ بَيْنَ الشَّكْلِ وَالْمَضْمُونِ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ نَلْتَزِمَ مَا أَمْكَنْ بِهِمَا مَعًا.

فالعنوان ( موقف الفكر الإسلامي من العلمانية ) ولنبداً القضية من العنوان نفسه، فاختيار العنوان لا يقصد به عقد مقارنة بين فكرتين متقابلين، لكن لعل هذا يشعر بذلك. إن موضوع الفكر الإسلامي ينبغي أن نطرحه دائمًا على أنه وحي أنزله الله تبارك وتعالى، وعلى أنه أمر من لا يضل ولا يخطئ، أنزله الله الذي يعلم السر في السماوات وفي الأرض، وبلغه الأنبياء المعصومون عن الخطأ في التبليغ عن الله عز وجل.

يقابل هذا الوحي: الهوى والجهل والخرافة والأساطير، وما شئت من مسميات..! فلتكن بأي شعار، وبأي اسم، وفي أي زمان، وفي أي مكان، فما لم يكن من الوحي فهو هوى وجهل وخرافة، إلا فهماً يؤتاه المؤمن من كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولو نظرنا إلى العلمانية من هذه النظرة، لوجدنا أن القضية قضية توحيد دعا إليه الرسل جميعاً ونزلت به الكتب جميعاً، يقابلها شرك وجهل وجاهلية وخرافات وردود فعل بشريّة، جاءت في فترات معينة في قوم معينين، لا يصلح بأي حال أن يكون مبدأً أو منهجاً يسير عليه البشر جميعاً في كل مكان،

ولَا سِيَّمَا مِنْ كَانَ الْوَحْيُ النَّقِيُّ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَفِي مَتَّاولِهِمْ، وَيَقْرَءُونَهُ وَيَتَلَوْنَهُ لِيَلًا وَنَهَارًا، فَمِنْ هَذِهِ الْقَضِيَّةِ يَبْدأُ الْمَوْضُوعُ.

إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِنَّمَا أَرْسَلَ الرَّسُولَ لِدُعَوَةِ النَّاسِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَذَكَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ جَمِيعًا بَعَثُوا لِيَقُولُوا: أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَّا فَاعْبُدُونَا [الْأَنْبِيَاءُ: 25] وَفِي الْآيَاتِ الْأُخْرَى: أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ [النَّحْلُ: 36] فَمَعْنَى (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) عِبَادَةُ اللَّهِ وَاجْتِنَابُ

الْطَّاغُوتِ، وَهِيَ التِّي ذَكَرَهَا اللَّهُ تَعَالَى أَيْضًا عَقْبَ آيَةِ الْكَرْسِيِّ: فَمَنْ يَكْفُرُ بِالْطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيهِمْ [الْبَقْرَةُ: 256] فَهَذِهِ كُلُّهَا تَدْلِيلٌ عَلَى مَعْنَى شَهَادَةِ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) الَّتِي جَاءَ بِهَا الْأَنْبِيَاءُ جَمِيعًا، فَأَيُّ مَجَمِعٍ يُؤْمِنُ بِهَا وَيَقِيمُهَا وَيَعْرُفُ مَعْنَاهَا لَا يُمْكِنُ بِأَيِّ حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ أَنْ يَكُونَ مَجَمِعًا عَلْمَانِيًّا، أَوْ أَنْ يَقْبِلَ الْعِلْمَانِيَّةَ، لِأَنَّ الْقَضِيَّيْنِ مُتَضَادِتَيْنِ مُتَنَاقْصِتَيْنِ، لَا يُمْكِنُ أَبَدًا أَنْ تَتَفَقَا.

إِنَّهَا ظَرُوفٌ تَارِيخِيَّةٌ وَمَلَابِسٌ مَعِينَةٌ لَا أَطْيَلُ بِشَرْحِهَا، إِنَّمَا أَخْتَصِرُهَا فِي كَلْمَةٍ وَاحِدَةٍ، وَهِيَ الْخِرَافَةُ، فَالْخِرَافَةُ هِيَ سَبِبُ الْعِلْمَانِيَّةِ، سَوَاءَ فِي أُورُوبَا أَمْ فِي بَلَادِ الْمُسْلِمِينَ وَأَعْنَى بِالْخِرَافَةِ أَنْ يَخْتَلِقَ الْبَشَرُ صُورَةً يَتَزَيَّنُونَ بِهَا مِنَ الْبَدْعِ وَمِنَ الْضَّلَالِاتِ غَيْرِ مَا شَرَعَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَعِنْدَمَا تَتَنَشَّرُ الْخِرَافَةُ فِي أَيِّ مَجَمِعٍ؛ فَإِنَّ هَذَا الْمَجَمِعَ يَقْبِلُ الْعِلْمَانِيَّةَ، وَيُمْكِنُ أَنْ يَتَحُولَ إِلَى عِلْمَانِيَّةٍ جُزِئِيَّةٍ أَوْ كُلِّيَّةٍ بِحَسْبِ تَقْبِيلِهِ لِلْخِرَافَةِ أَوْ مَقاوِمَتِهِ لَهَا.

وَالْعِلْمَانِيَّةُ إِذَا حَدَّدَتْ بِالْإِسْمِ وَقِيلَ: الْعِلْمَانِيَّةُ فَإِنَّهَا تَعْنِي: الْمَذَهَبُ الْفَكَرِيُّ الْمَعْرُوفُ، وَهُوَ مَذَهَبٌ نَشَأَ فِي أُورُوبَا وَهِيَ قَارَةٌ مَظْلَمَةٌ، وَلَمْ وَلَنْ تَخْرُجْ مِنَ الظَّلَمَاتِ أَبَدًا.. وَهُمْ يَطْلَقُونَ عَلَى فَتْرَةٍ مِنْ تَأْرِيَخِهِمْ قَرُونَ الظَّلَمَاتِ، وَكَانُوهُمْ إِلَآنَ فِي النُّورِ، وَالْوَاقِعُ أَنْ أُورُوبَا لَمْ تَخْرُجْ مِنَ الظَّلَمَاتِ مُطْلَقًا وَلَنْ تَخْرُجْ مِنْهَا إِلَّا إِذَا آمَنَتْ بِاللَّهِ وَحْدَهُ، وَاتَّبَعَتْ دِينَهُ الَّذِي هُوَ الإِسْلَامُ الَّذِي لَا يَقْبِلُ اللَّهُ دِينًا غَيْرَهُ، فَأُورُوبَا تَتَخْبِطُ مِنْ جَهَلٍ إِلَى جَهَلٍ، وَمِنْ ظَلَمَاتٍ إِلَى ظَلَمَاتٍ، وَعِنْدَمَا نَشَأَتْ فِيهَا هَذِهِ الْفَكْرَةُ، مَا كَانَ ذَلِكَ نَتْيَاجَةً لِتَفْكِيرٍ مُنْطَقِيٍّ عَلْمَيِّيٍّ مُجَرَّدٍ، كَمَا يَوْهِمُ الْإِسْمُ أَوْ يَشْعُرُ، وَلَا يُمْكِنُ عَلَى الإِطْلَاقِ أَنْ يَكُونَ الْعِلْمُ الْحَقِيقِيُّ أَوْ التَّفْكِيرُ الْحَقِيقِيُّ مَضَادًا لِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ تَبارَكَ وَتَعَالَى، وَإِنَّمَا نَشَأَتْ كَرْدَوْدَ فعلٍ

طويلة.. ولو حاولت أن أعرضها عليكم، لكان معنى هذا: أن نعرض تاريخاً طويلاً يمتد من سنة (325م) على الأقل إلى الآن، أي منذ أن اعتنقت الإمبراطورية الرومانية ما يسمى بالمسيحية وحتى الآن.

## ظهور العلمانية في أوروبا

لقد نشأت أوروبا في الخرافة وعاشت فيها، ومن هنا اتجهت إلى خرافة العلمانية.

### الفكر النصراني

أرسل الله عز وجل عيسى عليه السلام بما أرسل به الأنبياء جميعاً، كما قال تعالى: **أَئْبُدُوا اللَّهَ وَأَشْتَبُوَا الطَّاغُوتَ** [النحل:36] ولا يمكن أن يدعونبي إلى الشرك أبداً، فكيف نشأ الشرك في دين النصارى؟

أول ما حدث في دين النصارى أن عيسى عليه السلام رفعه الله تعالى إليه قبل أن يقيم مجتمعاً إسلامياً، فقد بعث عليه السلام في فلسطين، وهي جزء من مستعمرات الإمبراطورية الرومانية الكبيرة، وكانت الإمبراطورية الرومانية لا تريد أن تتدخل في قضية العلاقة بين المسيح وبين المجتمع اليهودي الذي بعث فيه، لأن القضية قضية داخلية، والإمبراطورية تحرص على أن توحد الأمة أو الولايات تحت حكمها، وهذا رجل جاء في ولايةٍ جزئية بدعوةٍ داخليةٍ محددة إلى بنى إسرائيل.

### ومن هنا نشأت قضيتان:

القضية الأولى: قضية أنها لم تقم دولة، وهذا ما جعل العلمانية تبدأ جذورها وبذورها في فكر القوم، فعندما لم يقم المسيح عليه السلام دولة منفصلة مستقلةٍ جهادية كما فعل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كانت هذه بذرة تلقائية للعلمانية بلا شعور؛ أي: يمكن أن يوجد الدين ولا دعوة له ولا جهاد فيه.

والقضية الأخرى: أن تتحول هذه الديانة من قضية دعوة محلية لقومه خاصة، إلى دين الإمبراطورية تحكم شعوبًا كثيرة، وهي ربما كانت أكبر إمبراطورية

آنذاك في الأرض، هذه النقلة بعيدة جدًا؛ لأن قومها الذين بعث فيهم المسيح لم يقيمواها في أنفسهم، فكيف تقوم على مستوى أكبر من ذلك؟! فلا بد أن يضيق نطاق التشريع والأحكام عن استيعاب الأحكام في العالم، والله اختص محمداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن دينه هو الدين الذي يهدي العالمين جميعاً، فالاعتراض ليس على كون الإنجيل لم يأت بأحكام للبشرية جميماً، ليس هناك اعتراض على هذا إطلاقاً، ولكن أهل الإنجيل محددون بأنهم هم أهل التوراة نفسها -أي اليهود- ومع هذا كله لم يصل الدين -كما هو في الإنجيل الذي أنزله الله- إلى أوروبا، فحصل أيضاً خطأً أكبر.

### تحريف الديانة النصرانية

وكان سبب تحريف الدين هو بولس، ولذلك نجد المؤرخين الغربيين يعرفون المسيحية فيقولون: إنها تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: المسيحية الباسوعية، أو مسيحية يسوع أي: عيسى عليه السلام، ويقولون: بدأت عام كذا وانتهت عام كذا بالتحديد، وهذه مسيحية مستقلة.

القسم الثاني: المسيحية الرسمية: سميت بالرسمية لأن قسطنطين تبناها وجعلها ديناً رسمياً للدولة، وبولس هذا رجل يهودي على الأرجح، اسمه اليهودي شاول، دخل في النصرانية ليفسدها، وكان هو -كما في رسالة أعمال الرسل المطبوع مع الأنجليل- يعبد المسيحيين -أي: المؤمنين بال المسيح- الموحدين عذاباً شديداً، ثم انقلب فجأةً، وأعلن أنه كان سائراً إلى دمشق لتعذيب المسيحيين، وإذا بالنور يخاطبه من السماء -وهي خرافات- ويقول له: أنا ابن الله أو نحو ذلك، فكيف وإلى متى تضطهد أتباعي؟! قال: فعرفت أنه المسيح، فرجعت وأمنت.

**وببدأ يدعو إلى المسيحية، فانقسم الناس تجاهه إلى قسمين:**

أما المضطهدون ففرحوا لأن الاضطهاد رفع، فهذا المضطهد تحول إلى معين وإلى داعية، فكان هذا شيئاً رائعاً بالنسبة لهم، وأما الذين هم على العقيدة الصحيحة، فتعجبوا أن هذا الرجل يرى هذه الرؤية-كما يزعم- من السماء،

وأصبح يدعوا إلى دين كامل، ليس هو الذي عرفوه عن المسيح ولا الذي في الإنجيل، فبدأ يبرمج ويهمنه، ويشرع تشريعًا من عنده، فيقول: هذا يجوز وهذا لا يجوز، وأخذ يرسل الرسل الذين يسمونهم رسلاً في الإنجيل (العهد الجديد)، فبعث هذا إلى الحبشة، وهذا إلى قبرص، وهذا إلى الإسكندرية، وبدأ ينظم لهم الدعوة بشكل عجيب!!

كيف هذا؟! ومن أين أخذ هذا الدين؟! ومن أين جاء به؟! وهكذا ظلت المعركة قائمة على أشدها. ثم كُتبت الأنجلترا، وأقدم نص موجود للإنجيل كُتب عام (209م) وإذا كان المسيح عليه السلام رفعه الله عز وجل، وهو يبلغ الثالثة والثلاثين -كما يقولون- ولعلها تكون فوق الأربعين والله أعلم.

المهم أنه بعد المائتين كُتب أول إنجيل، وهو عبارة عن سيرة رآها صاحبها، قال: عندما رأيت الناس يكتبون عما سمعوا عن الكلمة -أي المسيح- فأحببت أن أكتب إليك يا عزيزي ساوفيلد بما رأيت وبما سمعت وبما بلغني من الناس الذين عاشروا الكلمة -أي المسيح- فكان مؤلف الإنجيل يقول: "أنا إنسان أكتب أشياء بلغتني سمعتها عن المسيح" وما قال: إنها كتاب الله، ولا أنزلها الله.. أبداً. وهذا موجود الآن بنصه في مقدمة الإنجيل.

وفي القرن الثالث - حوالي الثلاثمائة- كتب إنجيل يوحنا وهو أخطر الأنجلترا، ونص فيه بصرامة على أن الآلة ثلاثة! أي: عندما تبني الدولة رسميًا عقيدة بولس، وضع إنجيل يوحنا الذي يتبنى أيضًا بشكل قطعي أن التكليف هو الشرك والعبادة، ثم استمرت البدع والانحرافات طويلاً.

وكانت ديانةٍ -كما سماها الغرييون- تركيبية، ركبت من فلسفات عديدة لا مجال للتفصيل فيها، أخذت الثالث من الأفلاطونية الحديثة، وأخذت قضية الصليب الذي يصلب فداءً عن غيره من المسرائية وهي دين وثني كان يدين به بولس، وأخذت أيضًا من التوراة المحرفة بعض الأمور، وهم يرجعون إليها كشريعة لهم، وهكذا تجمعت خرافاتٌ وأفكارٌ وأراءٌ فلسفيةٌ، وسمى الدين الرسمي للدولة باسم المسيحية.

وأكبر رجل -كما قلنا- بولس اليهودي ومن جاء بعده، واعتنقت أوروبا هذا الدين، واستمرت عليه.

ثم بعث محمد صلى الله عليه وسلم، وكتب -كما نعلم- كتابه إلى هرقل عظيم الروم، وذكر فيه الآية من سورة آل عمران: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِلَّا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهُ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلُّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ [آل عمران: 64]. وأنزل الله سبحانه وتعالى قوله: اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرَهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ [التوبه: 31] وأنزل الله عز وجل أيضًا: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحَبَارِ وَالرُّهَبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ [التوبه: 34].

وكثير من الآيات؛ وخاصةً في سورة آل عمران التي نزل فيها أكثر من ثمانين آية في شأن نصارى نجران، وهي تعالج قضية انحراف النصرانية. وعندما بعث النبي صلى الله عليه وسلم كانت أوروبا مشركة؛ لأنها لا تقيم حكم الله ولا دينه، فهي تعبد المسيح وهو بشر وليس إلهًا، وتعبد الأخبار والرهبان، وذلك شرك في الاتباع، وكانت تتبع القوانين الرومانية التي سنها جوستنيان وغيره، بل كانت مشركة في كل أمورها حتى في قضايا الأخلاق، فكانت حتى الأخلاق مستمدة من الأعراف، أو مستمدة مما يضعه الأخبار والكهان ورجال الدين.

## ورهbanية ابتدعوها

ومن البدع الشديدة التي ظهرت في المسيحية، وهي كثيرة -كما ذكرت-: بدعة الرهبنة، وقد ذكر الله عز وجل في كتابه: وَرَهْبَانِيَّةٌ ابْتَدَعُوهَا مَا كَيْبَيْنَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتَغَاهَا رِضْوَانَ اللَّهِ فَتَنَ رَعْوَهَا حَقًّا

رِغَائِبِهَا فَأَتَيْنَا الَّذِينَ آتَيْنَا مِنْهُمْ أَمْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَأَبْيَقُونَ [الجديد: 27]

هذه الرهbanية تفصل علنیاً وواقعاً بين الدين والواقع، وبين الدين والحياة، فوضعت المسيحية المحرفة الجزئية الإنسان بين طريقين لا خيار له فيهما: إما أن تدخل في ملکوت الله، فتذهب إلى الدير تتبع عبادة صارمة مقتنة، يشرف عليها رجال غلاظُ شداد، يتبعون ما شاءوا، ويفرضونه بالقوة: كذا كذا ترنيمة، وكذا تردیده، وكذا من العشاء الرياني ... إلخ!

وغيرها من الخرافات التي يُملونها على دينهم إملاءً، ومن أراد الدنيا فليطرد من ملکوت الله؛ لأنَّه يريد الدنيا -ويريد التزوج، وهو أمرٌ ترفع عنه المسيح ويترفع عنه رجال الكنيسة- ويريد أن يحرث الأرض -كما كان حال الشعوب الأوروبية-. وهذا شغل دنيوي حقير، فالرجل الذي يعبد الله يأتيه الرزق وهو في الديار، تأتيه الهبات، وتأتيه الصدقات، وليس محتاجاً إلى أحد، فهي جبرية بالمعنى الإسلامي، فالكنيسة شرعت مع الرهبانية جبريةً معينة.

## الحياة الأوروبية

ظلمت الحياة الأوروبية راكدة قروناً طويلاً؛ العمال يعملون للنبييل، والنبييل يجمع الأموال ويعطي الخدم، والنبييل يجهز من الخدم -من الرقيق- جيشاً للحملات الصليبية التي كانوا يشنونها علينا، يجهزها ويعطيها للإمبراطور، والإمبراطور يرى أنه مadam النبييل أرسلها إلى مسؤول الإقطاعية، فالوضع ثابت، والإمبراطور أسرته ثابتة توارث الملك، والكنيسة نظام ثابت يتوارث أصحاب المناصب والكراسي في ترقٍ هرمي، فكل أسرة ثابتة في عمل ما توارثه، هذا في الديار، وهذا في المزرعة، وانتهت القضية.

ومرت قرون والحياة ثابتة راكدة، ومرت على أوروبا فترة ظلمات أشد عندما جاء ما يسمى النورمانديون -شعوب الشمال-. وكلها شعوب همجية، فاحتلتها روما، أي احتلوا الكنيسة الغربية ونقضوها، وأما الكنيسة الشرقية في القسطنطينية فبقيت نصرانية، أما الكنيسة الغربية ودولها مثل إيطاليا، وفرنسا، وألمانيا، وبريطانيا؛ فبقيت قروناً طويلاً لا تعرف كتابةً ولا علمًا على الإطلاق، وكل رأس مالها من العلم كتب كتبت قبل الغزو، يقرؤها بعض الآباء (الكرادنة) فقد كانت مفلسةً تماماً من العلم.

ويعتبر الأوروبيون بداية التاريخ الحديث هو فتح القسطنطينية، لماذا؟! هل ذلك يعتبر لنا نحن لأننا فتحنا القسطنطينية؟!

لا!! إنما لأنهم يقولون: إنه عندما فتحت القسطنطينية، وأعطى محمد الفاتح الأمان لمن فيها من النصارى، هاجر العلماء الذين كانوا موجودين في القسطنطينية إلى روما وإلى الكنيسة الغربية، واستبشر أصحاب الكنيسة الغربية بالقضاء على الكنيسة الشرقية، وإن كان المسلمون هم الذين أخذوها، فانتقلوا إلى هناك، فقالوا: بدأ العلم وببدأت الحضارة، والحقيقة أن أوروبا تريد ألا يكون لنا فضل عليهم.

وهناك قضية انتقال الحضارة الإسلامية إلى أوروبا عبر الأندلس، وعبر إيطاليا، وكانت جامعات إيطاليا تدرس باللغة العربية، وكان فريديريك الثاني أكبر إمبراطور في العصور الوسطى الأوروبي -كما هو معروف- وهو الذي كان في عصر الكامل الأيوبي، وجاء إلى الكامل الأيوبي، وتقابلا في فلسطين وتحاطبا باللغة العربية الفصحى بدون مترجم، لأن فريديريك تعلم اللغة العربية، وكان من المفروض أن أي مثقف لا بد أن يتعلم اللغة العربية، وإلا فلا يعتبر مثقفاً، فكان جنوب إيطاليا مركزاً لانتقال الحضارة الإسلامية إلى أوروبا.

ومع ذلك لا تعترف أوروبا بهذا، ولا يهمنا أن تعرف، فهو أمر طبيعي، لكن الشيء العجيب أن أوروبا جاءها الإسلام بحضارة كاملة، وتراث علمي كامل، فاختارت رجلاً هو الآن عندهم أعظم رجلٍ في فكرهم من غير الأوروبيين، وهو ابن رشد الذي يسمونه أفيروس، وكيف لا وهو الرجل الذي جاء بكتب أرسطو وترجمتها؟!! فهذا هو الانتقاء الذي انتقته أوروبا، ونحن أخذنا علمانيتها كاملةً ولم ننتق!

وبدأ عندهم ما يسمى بالعلوم الإنسانية، والتسمية نفسها -مع الأسف نحن نقلناها- سميت لأن العلم كان من وضع رجال الدين، كانوا يضغطون على العلماء، ويتتحكمون في كل شيء، وكان العلم هو ما ي قوله رجل الدين، سواء حدثنا عن الأرض أم عن الكون أم عن التشريع، كما قال تعالى: اتَّخُذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ [التوبه: 31] فكل ما ي قوله الخبر أو الكاهن فهو الدين والعلم.

أما الذين ارتدوا إلى الجاهلية الإغريقية فقد جاءوا بالفكر الإنساني كمقابل لل الفكر أو العلم اللاهوتي، وقالوا: هذا فكر إنساني، وهو يطلق على علم الاجتماع، وعلم النفس. وهذه العلوم -حتى هذا الوقت- لا تزال في أوروبا وقد استوردها منهم، وفي كثير منها نظريات تتصادم مع الإسلام، وفي الغالب لا نجد كتاباً مسلماً متخصصين يكتبون هذه القضايا من خلال الإسلام. وبدأ ما يسمى بعصر النهضة وبدأ الصراع بين الدين وبين الفكر الإنساني كما يسمونه.

نتقل إلى مرحلة أخرى وهي مرحلة العلم التجريبي الذي استفاده علماء أوروبا من المسلمين، وبدعوا يجربون وينظرون للكون نظرة تجريبية، ومن حكمة الله عز وجل وقدره أن النظريات الكونية

سبقت النظريات الإنسانية. فإن مجال النظريات الكونية هو العقل، قال تعالى: قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ [يوسوس: 101] قُلْ سَبِّرُوا فِي الْأَرْضِ [الأعماق: 11] والآيات كثيرة ومعروفة.

فالنظر في الكون هو من شأن الإنسان ومن شأن العقل، ولكن النظر في الإنسان ونفسه واجتماعه وتشريعاته، فهذا ليس من شأن البشر، فقد قدر الله عز وجل أن أول ما يصطدم مع خرافات النصارى هو النظريات الكونية، فظهرت التجارب العلمية قليلاً قليلاً، كان منهم غاليليو الذي قال - وهذه كلمة ليست سهلة عندهم -: (إنَّ الْأَرْضَ تَدُورُ) فيترتب على ذلك مصائب كثيرة جداً. وحتى ندرك الفرق بين النظيرية ذاتها في الإسلام - صحت أم لم تصح - وبينها في دينهم، أنه إذا بطلت الخرافة؛ فمن الطبيعي أن ينتهي الدين الذي يحمل هذه الخرافات، لكن دين الله عز وجل وهي منزل كما قال تعالى: قُلْ إِنَّمَا أَنْذِرْتُكُمْ بِالْوَحْيٍ [الأنبياء: 45] والجانب العلمي البشري منه متترك للإنسان، فليخطئ الناس إذا قالوا: تدور مثلًا، أو قالوا: لا تدور، فهذا لا يمس الدين نفسه، لكن رجال الكنيسة شعروا بأنَّ مجرد أية نظرية تخرج عن غير ما قرروه هم، أنَّ هذا بداية الخروج على الكنيسة، ولو خرج الآن شبراً، فسيصل بعد ذلك إلى ذراع، ثم سيكون الخروج الكلي وهو ما حصل فعلًا! فبدعوا بتعذيب غاليليو، حتى قتلوه في الأخير.

ثم جاء رجل كان له دور أخطر وهو كوبيرنيك وقال: "إن مركز الكون هي الشمس، وأن الأرض تدور، وهي كوكبٌ تابعٌ للشمس" وهو قدقرأها في كتاب قديمة، وطالع فيها كثيراً عن علماء المسلمين حيث ذكروا حجم الشمس وأنها أكبر من الأرض - وهذا معروف ولا مجال لذكره - المهم أنه قال هذه الحقيقة، فقال أعضاء الكنيسة: لو قلنا: إن الأرض كروية، لكان الناس الذين في النصف الثاني من الأرض يمشون وأرجلهم فوق، وهذه أفكار شيطانية! الغريب أن كوبيرنيك نفسه كان قسيساً! وكذلك نلاحظ أن أبطال أوروبا في الفكر أكثرهم كانوا قسيسين وأبناء قساوسة؛ وذلك لأن السيطرة العامة على أي شيء اسمه العلم أو الكتابة كانت بيد الكنيسة، ولذلك لا يتخرج إنسان

متعلم إلا وهو قد تربى في دير أو في كنيسة. ولم يكتفوا بذلك؛ بل جاءوا بهذا القسيس العاق كويرنيك فهددوه بالتعذيب والقتل فاعترف أمامهم بأنَّ هذه فكرة أوحى لها الشيطان -لعنه الله- بأن الشمس مركز الكون، وإنما الشيطان هو الذي سُوِّل له فكتب ما كتب! ولا زال هذا الكتاب محفوظاً وهو علمي على قدر عصرهم، هكذا اضطرَّ أن يعترف في المحضر: أن الشيطان جاءه في النوم وأوحى إليه بذلكوها هو يتوب ويعود إلى الإيمان والدين!

فهذه كانت مرحلة مهمة، ثم تالت بعدها المراحل فتطور الأمر -لأنَّ الخرافية لا تثبت- بعد كويرنيك، وجاء نيوتن، ونظريته بسيطة وهي: نظرية الجاذبية، وهي مبسطة ومعروفة لنا جميعاً بأنَّ الكائنات أو الكواكب جميعاً تتmasك بفعل الجاذبية، فهذه نظرية ليس فيها إشكال، ولا يترتب عليها أية إساءة للدين، وهو تفكير عقلي وطبيعي، فنظرية نيوتن نظرية بشرية لا إشكال فيها، إلا أن الكنيسة اعتبرت هذه خارقة أعظم من مصيبة كويرنيك، وأعلنوا في منشورات وزعواها في طول أوروبا وعرضها أنَّ هذا ملحد وكافر... الخ.

بينما هو يعلن أنه مؤمن بالله وأنَّ هذا لا يتعارض مع الإيمان، المهم أنه أعطى ما يسمى تفسيراً فهو لاحظ أنَّ الكون متناسق ومستقيم بطريقة ميكانيكية.

## صراع العلم والكنيسة

هذه النظرية -نظرية نيوتن- أوجت إلى أناس متربصين بالدين وهم اليهود باستغلال هذه الفجوة بين العلم وبين الدين، ظهرت نظريات تقول: ألا يمكن أن يأتي مقابل الميكانيكا الكونية ميكانيكية بشريَّة، بحيث تسير حياة الإنسان وفقاً للعلم أو لنظرية ما؟!

هذه القضية شغلت كثيراً من علماء أوروبا الهاجرين من الكنيسة، فبدأ الهجوم على الدين ولكن بطريقة الهجوم على رجال الدين، فإنه لم يكن بإمكانهم في ذلك الوقت أن يهاجموا الدين، أي أن يهاجموا الإنجيل. والمعروف في الأدب الأوروبي أن القصص والأعمال الأدبية كثيرة وموضوعاتها تتمحور في أمرين: الأمر الأول: رجل الدين الذي يتظاهر بالدين والخشوع في الدير، ويبكي ويقرأ الإنجيل، ولكنه في السر يرتكب الفواحش، ويزني مع الراهبات، ويأكل الريا،

وي فعل الموبقات إن عادة الناس أنهم يقرءون الأدب لأنه يثير النزعة الإنسانية - كما يسمونها - فيقرءون الأعمال الأدبية، فتعطي ردة فعل وتصوراً معيناً - لكن ليس تصوراً علمياً ضد الدين - وإنما هو ضد رجال الدين.

الأمر الثاني: العطف على البغایا! وهذا أصبح منهجاً معروفاً في الأدب الأوروبي، فهناك أعمال أدبية كثيرة معروفة موضوعها المرأة البغي التي لجأت إلى البغاء، نتيجة ظروف اجتماعية قاهرة وأوضاع سيئة ومشاكل، لكن مع أنها بغي وأنها تضحى بعرضها وشرفها لمن شاء، لكنها محترمة لأنها لا تسرق، وأخلاقها ومعاملاتها طيبة، وكذا وكذا، هذه الصورة تعرض مقابل ما يعلمه الناس جميعاً - وأولهم الكراونة والقساوسة - مما يدور في الأديرة من الفواحش ومن الموبقات!

والذين درسوا الأدب الإنجليزي والعربي من مجان شعراً العرب كانوا يدخلون الأديرة فيجدون هناك الملذات والشهوات والمحرمات والموبقات والعياذ بالله! وكذلك في أوروبا عندما جرت حروب بين البروتستانت والكاثوليك كان البروتستانت يدخلون إلى بعض الأديرة ويخرجن منها رفات وعظام أطفال الزنى - المولودين بالزنى - الذين رمتهم الراهبات والقساوسة تحت الأرض، فأخرجها البروتستانت ليبرهنوا على انحراف الكاثوليك، وكأنهم هم ليسوا منحرفين!

فالعطف على البغایا أيضاً كان اتجاهًا في هذه المرحلة ومن أشهر هذه الأعمال كتابات الرجل الأوروبي ديجر و الفرنسي الذي كتب دائرة المعارف لتحل محل الإنجيل، وكان ذلك في القرن الثامن عشر، وأما من مضى فكتبوها دائرة معارف عامة ليستغنوا عن علم اللاهوت بها، وديجر و هذا له قصة كبيرة جداً اسمها الراهبة، وسميت بعد ذلك المتدينة، وهناك أعمال كثيرة من هذا القبيل. وهناك الاتجاه الإنساني أو الأدبي أو الاجتماعي يسير مع الصراع العلمي بين العلم وبين الكنيسة، حتى جاءت الثورتان المتقاربتان: الثورة الفرنسية وهي ثورة بالمعنى الصحيح، والثورة الصناعية.

## خروج العلمانية إلى النور

الثورة الصناعية هي عبارة عن تحول اجتماعي كبير، نشأ بظهور الآلة واستخدامها، وأدى إلى تحولات وفجوات وخلخلة كبيرة جدًا في التاريخ الأوروبي، وهذه الفجوات وهذه الخلخلة أدت إلى نجاح الأفكار التي كان العلم يدعو إليها قديمًا، والثورة الفرنسية هي التي أوجدت أول ثورة علمانية بالمفهوم المعاصر للعلمانية، وإلا فالشرك قائم وقد وقع منذ قوم نوح عليه السلام، لكن بالمفهوم الذي يردد الآن أن أول دولة علمانية كانت فرنسا وذلك بالثورة الفرنسية، وخرجت الجماهير تهتف وتصرخ وتقول: "اشنعوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس" أي تدلل على الاقتران والتعاون على الظلم الذي حصل بين رجال الدين وبين الإباطرة، ورجال الدين كانوا أشداء حتى على الملوك.

وقضاياهم في التاريخ معروفة ومنهم - أي: الملوك- من ذهبوا إلى البابا يستعطفونه، ومشوا على الحجارة أيامًا وليلي، ووقفوا لابسي الخيش في البرد الشديد، يستعطفون البابا ليرحمهم، لكنه الاستغلال الذي كانت تمارسه الكنيسة، فقد غيرت دين الناس وحولتهم من دين إلى بدع، وغيرت الملوك، وحرقت العلماء، ودمرت الحياة تدميرًا كاملاً، وأخذت العشور من الناس، بل وأكثر من العشور في كل ما يزرعونه وما ينتجونه، ومن جهة أخرى كان كل ما يمكن أن يرتكب من الموبقات فعله رجال الدين، فالثورة الفرنسية خرجت وهتفت باسم هذا المبدأ، وأعلنت أنها دولة لا دينية وأن الجميع فيها سواسية فلا دين ولا غيره يفرقهم، وكان اليهود هم الأكبر ربحًا من هذه القضية.

وكان عند رجال الدين أن أي شيء يخالف الوحي فهو خرافات، فخرافة دارون هذه جاءت نتيجة - كما ذكرنا - ما قاله نيوتن، وهي أن دارون جاء بنظرية ميكانيكية عن الكون، فهل نستطيع أن نأتي بنظرية ميكانيكية عن الإنسان؟ قد يقول قائل: نيوتن فسر كيفية أن الأجرام تتناسق في السماء، ولا يمنع أن يكون الذي جعلها على هذه الكيفية هو الله، فلماذا لم يقل النصارى: إن الله خلق الإنسان كما أراد، لكن عملية خلق الحيوانات جميعًا أو السجل الجيولوجي كله من أوله إلى آخره، أراد الله أن يكون الخلق متطورًا بهذا الشكل - مثلاً - في داخل نطاق النظرة الأوربية، لمَ لم يحصل هذا؟

نأتي هنا إلى قضية هامة وهي أن في الإسلام، أن آدم عليه السلام أول الخلق، وأن جميع الأنبياء هم من ذريته، ولا إشكال في هذا الموضوع، لكن عند الكنيسة هذه القضية خطيرة جدًا، لماذا؟ لأن الدين النصراني عندهم فقط قضية الصليب والفداء التي سببها خطيئة آدم، والخطيئة أنه أكل من الشجرة،

ولكن الله -تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا- ضحى بابنه الوحيد ليكفر عن الجنس الذكري من هذه الخطيئة، فأنزل ابنه وقتل -تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا- لكن إذا قلنا كما تقوله نظرية دارون: أن الإنسان تطور طورًا طبيعياً، وظهر ووجد بشكل تلقائي من الخلية إلى الكائنات العضوية واللافقاريات إلى القرد إلى شكل إنسان، كما تقول النظرية حلقة مقطوعة، كان الإنسان على هذا الكلام ليس هناك آدم، وإذا لم يكن هناك آدم فالحقيقة أنه إذا: ليس هناك خطيئة، وليس هناك صلب، وليس هناك فداء.

إذا: فمن حق الكنيسة -من وجهة نظرها- أن تستميت الاستماتة الكاملة في دفع النظرية -نظرية دارون- لأنها تهدم بها المسيحية هدمًا تامًا، فإن الاعتقاد بأنه لم يوجد آدم معناه أنه لا يوجد مسيح ولا يوجد صلب ولا يوجد فداء، إذا: ما بقي من الدين -دين النصارى- شيء.

فترتب على هذا أن الكنيسة قاومت نظرية دارون مقاومة شديدة، وجاء الصحفيون والهداة والعلمانيون من كل ناحية، وأشاعوا نظريته بشكل رهيب لم يحلم به دارون، وربما لم يخطر له على بال، والعجيب أن لمارك ويوبتيه وعدة علماء أو باحثين -كما يسمون- حاول كل واحد منهم أن يأتي بنظرية قريبة من نظرية دارون أو مؤدية إلى نظريته إلا أنه لم يكتب لها الشيوع، لأنهم أشاروا أو ذكروا أن الله اقتضت حكمته هكذا حتى لا يفاجئوا أن يصدّمهم المجتمع أو تصدّمهم الكنيسة.

ونظرية التطور اعتنقتها أوروبا وعممتها على كافة الحياة؛ لأنها استندت على فكرة التطور العلمي، التي جاء بها أوجوف كوم قبل دارون بأكثر من ستين سنة، في مطلع القرن التاسع عشر، جاء وقال: "إن العلم البشري مر بثلاثة مراحل: مرحلة الخرافية والشعر، ومرحلة الدين، ومرحلة العلم".

هذا التطور إذا نظرنا إليه بالنظرة المنطقية، وجدنا أنه: بدأ بمرحلة الحيوان، ثم مرحلة الدين، ثم مرحلة العلم، فهذا التطور الفكري الذي تخيله أوجوف كوم، أصبح حقيقة دعمتها التجربة ودعمها المعهد، ونعرف جميعًا ماركس كيف ركب نظرية المادية من نظرية التطور لدارون وقال: بأن المجتمع يتتطور من خلال مراحل الاستكش -المراحل الخمس- الشيوعية.

والشاهد أن الديمقراطية والإنسانية ونظريات علم النفس ونظريات الاجتماع كلها ركبت على هذه الخرافة، ومن هذا أن التجارب تجري على الكلاب وعلى القرود وعلى الفئران وعلى أي حيوان،ويراد أن يفعل بالإنسان ما طبق على الفأر أو القرد أو الضفدعه! هكذا وصل الأمر إلى انهيار معنى الإنسانية، وهبوط هذا المعنى، وظهرت الديمقراطية نتيجة للاحتكاك الذين أحدثته الشورة الصناعية وهذه الأفكار، ونحيي الدين تنحية كاملة، ونحيط النفس الإنسانية، وأقيمت الدولة العلمانية على منهج بشرى، أي: على منهج الهوى والخرافة كما قلنا.

---

الكلمات المفتاحية:

#العلمانية

تنويه: نشر مقال أو مقتطف معين لكاتب معين لا يعني بالضرورة تزكية الكاتب أو تبني جميع أفكاره.